تَنْبِيهُ الْأَنَامِ إِلَى أَنَّ فَسَادَ الشُّعُوبِ بِفَسَادِ الْعُلِمَاءِ وَالْحُكَّامْ[1].

لعلَّ أبرزَ وأشْهَرَ ما أُثِرَ عن السّلفِ في هذا الباب هو بيتُ ابن المبارك رحمهُ الله :

"وهل أفسدَ الدّين إلّا ملوكٌ ** وأحبارُ سوءٍ ورهبانها"

وهذا بيتٌ يُقرأُ قراءةً اجتماعيّة؛ وإليكَ بالتفصيل:

النّاسُ مُذْ كانوا سُوقةٌ وصفوة أي عامّةٌ وخاصّة، وأمرُ العامّةِ دومًا بيدِ الخاصّة، والخاصّة صنفان: (أهل المال والجاه والمنعة وما شابهه) و(أهلُ العلم والدّين والأدب)، ويدخلُ في الصنفِ الأوّل : الملوكُ والأمراء وكبار التجار ورؤوسُ الجيوش، ويدخلُ في أهل العلم والدّين العلماءُ والمشايخُ والأدباءُ والمفكّرون، وسُمُّوا سُوقَةً لأنّهم يُساقون -وهو مُصطلحٌ مستفزٌّ على كلِّ حالٍ لكنّهُ صحيح -، وسُمّوا عامّةً لأنّهم لا ينهجونَ منهجًا مُحدّدا في الحياةِ والدّين، فهم على دينِ خاصّتهم، وسُمّوا دهماءَ لأنَّهم لا يُعرفَ لهم رأسٌ من ذيل كالكرةِ تُركَلُ وتُدحرجُ أينما شاءَ راكلوها أن يفعلوا، واليومَ غلبَت تسميةُ الشعوبِ عليهم، ولكلّ عصرٍ مُصطلحاتهُ التي تطفو.

وقوّةُ العامّةَ في اجتماعها واتحادها، فإذا فُرّقَ شملها بالعصبيات والجاهليات صارَ ركلها ذات اليمين وذاتَ الشمالِ أيسرَ وأسهل، وجمعُهَا إنما هوَ بيدِ العلماءِ والحكّام، ولمّا فسدَ في عصرنا هذانِ الصنفان فسدتْ بفسادهما الناسُ، ومن خَبِرَ أمرَ العامّةِ أدركَ أنّها كصغارِ الفتيان المجتمعين، إذا لم يُشغلوا بمشروعٍ[2] يُفرغُونَ فيهِ شُحنةَ الطّفولةِ لديهم -كلعبةٍ أو تدارس وتعلّم- تشاغلوا بالفسادِ، ووجهُ تشبيه العامّة بالفتيانِ هو نُقصانُ العقل والعلم وكمالُ الفتوّةِ والطّاقة، فشعوبُنا أغلبها شبابٌ كما يعلمُ الجميع:

أوّلًا: الحُكّام:

إنَّ أشنعَ وأبشعَ وأفظعَ ما بُليت به الناسُ في عصرنا هذا -وهو ما لم يسبق له مثيل في التاريخ الإسلامي- أَنْ تُستبعدَ الشريعةُ من الحكم، وتُستبدَلَ بالقوانين الوضعيّة الكافرة والاجتهادات البشريّة القاصرة، والتي هي اعتراضُ الإنسان عن حُكمِ الله؛ إنَّ تقنينَ وتشريعَ الرّبا -مثلًا- هو اجتراءٌ على الله واستدراكٌ بشري عن حكمة الله، كأنما يقولونَ "أنتَ متزمّتٌ يا ربّ، دعنا والحكمَ، فنحنُ أعلمُ به منك" -تعالى الله عن ذلك

---

[1] إشتغلتُ مدّةً كبيرة في التفكيربهذه الإشكالية ووصلتُ لقناعة مفادها أنّ أكثرَمن 75 بالمئة يتحمله الحكام والعلماء والباقي الشّعوب والله أعلمْ.

[2] ذكرَحسنين هيكل في مقال بعنوان "الإمبراطوريّة على الطّريقة الأمريكية" أنّ مجموعة من الضباطِ الأمريكيين يتقدّمهم الأميرال ستيفنْ لوس تقدّموا بدعوة مفادها أن تكونَ أمريكا "دولة حرب" -ومحلُّ الشاهد هاهنا هوتبريرهم" لذلك فقد قالوا "لأنّ الحرب تجربةٌ ليسَ لها نظيرٌفي توحيدِ الشّعوبِ، وكشفِ صلابة معدنها، وتنشيطِ هممها وتفتيحِ عقولها، وداعيةٌ لحسنِ استغلال مواردها الماديّة والمعنويّة" انتهى؛ قُلتُ فانظرإلى حجمِ الإصلاحِ الذي يبخلُ به الحكامُ عن شعوبهم لمّا عطّلوا شريعةَ الجهاد التي تعتبرُرأسَ المشاريع الجامعة لإصلاحِ الشعوبِ ووحدتها.

علوًّا كبيرًا-، والإعراضُ عن تحكيم الشريعة أظهرُ ما يفسدُ حياةَ النّاسِ وينكّدُها، والقائمونَ على مواصلةِ النهج التخريبي باستبعادِ الشريعة هم حكّامُ المسلمين[3] كما لا يخفى؛ وإليكَ ببعضِ ما أفسدَ ويفسدِ حياة الناسِ وفطرهم:

الفسادُ الإقتصادي :

الرّأسماليّة أو الإشتراكيّة: إنّ اتخاذَ الحكومات للنهج الرّأسمالي أو الاشتراكي =طامّةٌ يظهرُ نتاجها في تشكّل الطّبقيّة المقيتة بين أبناء الشعب، فالرّأسماليّة هي غناءُ فردٍ بشكل لا متناهي بكلّ حريّة مقابل فقر الأغلبيّة، والإسلامُ أغلق الباب في وجهِ تغوّل طرفٍ أمام طرف؛ نعم، ضمنَ أن لا تمسّ أموالُ الناسِ الخاصّة بدونِ رضاهم -معَ استثناءاتِ قليلة جدًّا- ولكن بالحسنى، فمثلًا الزّكاة هي حقّ الفقير من مال الغنيّ، ولو اجتهدَ الحكامُ في استخراج الزكاة من الأغنياء وبذلها للفقراء لانعدمَ الفقرُ أو كاد؛ وبظهور أصحاب الأموال المتزايدة بالسّبل غير المشروعة= تظهرُ الإنتكاسات المجتمعيّة وتميلُ طاولة المجتمع نحو الشِّمال، فإذا مالت فمآلها الإنقلاب لا محالة، والإشتراكيّة أختُ الرّأسمالية في كونها اجتهادًا بشريًّا أثبتَ فشله الذّريع، فكيفَ يصلح أن تعملَ النّاسُ صباحًا وتأخذُ الحكومةُ مالهم مساءً؟! وتبيين كيفَ أنّها تُفسدُ حياةَ النّاسِ لا حاجة له فهو معروف، وعليهِ فإنَّ الفقرَ وتردّي الحال الإقتصادي لدى الشعوبِ يحملُ كبرهُ الحكام، هذا معَ عدمِ إهمال ذكرِ السرقاتِ والنّهوباتِ والإختلاسات وأثرها الكبير في تكريسِ فقر الشعبِ مما يعني فسادَهُ بفسادِ أحد أهمّ أعمدةِ نظامهِ.

الرّبا: من التفتَ حولهُ وجدَ أنّ البنوكَ كلها-أو أغلبها- ربويّة، ترفعُ لافتة "حرب الله"، والذي يقومُ عليها هم من يعرف الجميع = الحكام وما يُلحقُ بهم من رؤوس الأموال ودهاقنةِ المال، فالرجلُ العاميّ البسيط الذي أنهكهُ الفقرُ والديون التي يتسببُ بها الحكام لن يفكّر كثيرًا في أنّ تعاملهُ البنكيّ ربويّ، لأنّه لا يجدُ بديلًا إسلاميًّا وربّ الأسرةِ الذي لا يجدُ بيتًا يؤوي زوجتهُ وبنيهِ سيلجؤُ رغمًا عنه لاقتراضِ قرضٍ ربويّ، ولأنّ إرادةَ الناسِ ضعيفة، كما هو مقرّر، والطفلُ الذي يأكلُ الحلوى الموضوعة تحتَ سريره تُلامُ أمّه أكثرَ من أن يُلامَ هو؛ والمجتمعُ الذي يكثرُ فيه الرّبا تُمحقُ منهُ البركة.

الفسادُ الإجتماعي والتربوي :

الإختلاط: دفعُ النّساءِ والرّجال دفعًا كبيرًا إلى الإختلاطِ والانحلال = أمرٌ ظاهرٌ وبيّن، لا يُجادلُ فيهِ ولا يُعانَد، والسبب هو الحكّام والأنظمة الفاسدة؛ إنَّ تقنين الإختلاطِ تحت مسمّى التعليم والعمل = أمرٌ مآلهُ انتشارُ الرّذيلة وتحطّمُ خليّة المجتمع بتحطّمِ المرأة، والأسرة خليّةُ المجتمعِ ونواتهُ، بصلاحها يصلحُ

[3] هناكَ فرقٌ بينَ قولهم حكّامُ المسلمين وبين الحكام المسلمين فتنبَّهْ.

وبهلاكها يهلك، ودفعُ المرأةِ للتنكّبِ عن فطرتها بأنّها أمٌّ ماكثةٌ بالبيتِ أصلًا، وخُروجُها عارضٌ لا أكثر = يظهرُ اليومَ بشكل جنونيّ، فالمرأةُ تُزاحِمُ في الحافلة -التي كانَ مُمكنًا أن يُخصّص بعضها للنساءِ وبعضها للرجال دونَ اضطرار لدمجِ الجميعِ في قُمرةٍ واحدة-، والمرأةُ في المعمل كتفها يلامسُ كتف الرّجل، ودُخانُ سيجارتهِ يُبخّرُ ملابسها عند عودتها لبيتها المشتت، والمرأةُ في المدرسةِ والجامعة تُجانبُ الرّجل وتعاملهُ وتضاحكه وتمازحهُ وتملؤُ عينها منهُ ويفعل معهَا هو كذلك، في حين كانَ مُمكنًا أن يُفصلَا ولا يُجمعَا، لكنّهُ أمرٌ مُدبّرٌ لإفساد المجتمعِ وتحطيمه، والمرأةُ ضحيةُ السّلاحِ الأكثر فتكًا في هذا الزّمن وهو الإعلام، وهو ما سنحكي عنه لاحقًا.

المناهجُ الدّراسيّة: تنشئةٌ النّاشئة على الإختلاطِ واستمرائه تُطبخُ مرقتهُ في المدرسة، وأكثرُ من ذلك فإنّ المدرسةَ اليومَ مقبرةٌ للعقول والإبداعِ، والحُكّامُ يتنافسون في إرضاءِ الكفرة عندَ "تحسينهم" المتكرّر للمناهجِ الدّراسية المخرّبة بالفعل، ولقد استدعت وزارة التربية في بلادنا هذا العام عشرةَ أكادميين للوقوف على عملية التحسين هذه، والمفاجأةُ أنّ كلّهم فرنسيين، فمن الذي استدعاهم؟! ومن الذي سمحَ للأيادي السوداءِ الفرنسيّة الصليبية التي مازالت تقطُرُ دمًا من ذبحِ أجدادنا بأن تكونَ هي المشرفة على عملية الإصلاحِ؟! أيُّ جنونٍ وأيّ خبل هو هذا؟! لن تخرجَ بنتيجة سوى أنّ الأمر مبيّتٌ له، وأنّ إفسادَ الفاسد ليكونَ أكثر فسادًا = من صميم اختصاص الحكام ومن جاورهم من رؤوس الضّلال.

المخدّرات والمسكرات: ذكرَ إتيان دي لابوسي في كتابه العبوديّة المختارة قصّة مكرِ كسرى بأهالي سيردينيا، فبعدَ أن غزاهم واحتلّ مدينتهم ثاروا عليه كعادتهم بمن يحتلّهم، وبدلًا من أن يدمّرَ عليهم مدينتهم بجيوشه اللامتناهية الفتاكة = أصدرَ قراره بافتتاح المواخير والخمارات ودور الدّعارة، فغرقوا وشُلّت قُدراتهم وتعطلت.

ويقولُ هنري دي كاستري" أنَّ أحَدَّ سلاحٍ يُستأصَلُ به العربُ والمسلمون، وأمضى سيفٍ هو (الخمر)، وقد جرّبنا هذا السّلاحَ على أهل الجزائر -إبّان الإستخراب الفرنسي- فأبوا أن يتجرّعوهُ[4]، فتضاعفَ نَسْلُهُم، ولو قبلوهُ لأصبحوا أذلّاء"[5]؛ واليومَ استحلَّ الحكامُ في ديارِ المسلمين الخمَّارات وبيوتَ الدّعارة، وأصبحَ بيعُ الخمر بصريحِ القانون تجارةً قائمةً رائجةً مرخّصةً، والحيُّ الذي فيهِ خمارةٌ أفسدُ من الذي ليسَ فيه وهذا معلوم، أمّا المخدّرات فحدّث ولا حرج، ولا يعترضنَّ أحدٌ بأنَّ النّاسَ هي من تشرب وتتخدَّر دونَ إجبارٍ وإكراه، فمنعُ هذه السّموم هو من صميم عمل الدّولةِ لو كانت تريدُ صلاحَ شعبها، لكنّها تريدُ هلاكهُ وفساده ليصفو لها الحال لتفعلَ ما تشاءُ، ولله المشتكى.

4 قلتُ واليومَ قد تجرّعهُ كثيرٌ منهم يا للخيبة

5 سموم الأستشراق و المستشرقين أنور الجندي

المُوالاةُ والمظاهرةُ للكفّار[6]: أَنْ يُستعانَ بمشركٍ لقتالِ مُشركٍ من طرفِ مسلم فهذا جائزٌ بضوابطٍ، ذكرها العلماءُ والفقهاء، منها أن يكونَ المسلمُ المستعينُ يأمنُ شرَّ الكافر المستعانِ به، أمّا أن يُستعانَ بطاغوتِ العصر ورأسِ الإجرام وفاجرةِ البحار أمريكا فهذا ما لا يقبلهُ عقلٌ ولا دين.

لقد جرَّتِ الإستعانةُ التاريخيّة لبلدٍ مسلمةٍ خليجيّة بأمريكا ضدَّ بلدٍ مُسلمةٍ أخرى الويلاتَ على جزيرة العرب إلى الآن، ودُهمتِ الشعوبُ بضيفٍ ثقيل نجسٍ جاثم على صدورها وترابها ودينها ومناهجها، ولم يُدخلهُ سوى الحكام، ولو قلّبتَ بصركَ نحو جميعِ بلادنا لوجدتَ مثل ذلك وأكثر، وموالاةُ الكفار إلى درجة مظاهرتهم على المسلمين أمرٌ جلل، شدّدَ فيه الإسلامُ تشديدًا كبيرًا إلى درجة "**ومن يتولّهم منكم فهو منهم**"، وتمكينُ رؤوس الإفساد من الدّول الإستعماريّة للتغلغُلِ في هياكلِ الدول الإسلاميّة من أوضحِ صور الإفساد لدين الناسِ ودنياهم، وأغلبُ البلابل والفتنِ الدّمويّة التي تشتعلُ في بلادِ المسلمين مصدرها سفارتٌ أجنبيّة[7]؛ والتضييقُ على الحكّامِ -على فرضِ أنّهم مضطرّونَ لِمضايقة الشريعةِ وأهلها- مبدأهُ أنّهم يُوالونَ المشركين ويدخلونَ في أحلافهم ونواديهم الظّالمة ومن ثمَّ يَبدأُ مسلسلُ الإنهيار المشاهد اليوم للأسفْ، ويرحمُ الله عبد العزيز ابن مرزوق إذ يقول : "يتركونَ الحكم بما أنزل الله بدعوى عدم مناسبتهِ للزمانِ، ثمَّ يأتي عيسى ابن مريم بعدهم فلا يحكمُ إلا بشرعِ الله، فالخلل ليسَ في الزمانِ وإنّما في حُكّامهِ."[8]

الإعلام: لو تضافرَ سبعةُ رجالٍ على أن يخبروا أحدًا أنّه بَدِينٌ رغمَ أنه نحيف، فَجَاءَهُ الأول صباحًا والثاني مساءً والثالثُ ناصحًا والرابعُ محذّرًا والخامسُ مندهشًا والسادسُ مُعلّقًا والسابعُ مؤكّدًا = فإنّه سيقتنعُ بأنّهُ سمينٌ بَدين، وسيتأصّلُ لديه بأنّهُ كذلك، ومن هاهنا تظهرُ خطورة الإعلام، فالجلدُ المُتكرّر الممارسَ على عقول الشعوبِ يُرضخها لا محالةَ إلى وجهةِ نظرِ المالك والمستعمر وعقيدته الفاسدة وثقافتهِ البائدة.

إنّ كلّ قناةٍ مفسدة هي بمثابة جيشٍ فاتك، بل أكثر من ذلك؛ إنَّ القيامَ بحربٍ تستنزفُ فيها الأمم أبنائها وخيراتها أمرٌ لا بدّ منهُ إن كانت تسعى لتمرير فكرةٍ وتقريرها أو لتحطيمِ فكرة في الجهة المقابلة وتدميرها، و كلُّ الحروب -التي قامتْ وتقومُ أمس واليومَ وغدًا- هدفها أن يتقبّلَ ويقرَّ المغلوب بقدر الغالب و كبره واستحقاقه وأنّهُ عبدٌ له، وهل كانَ هتلر سيقوم بما قامَ به لو أنّ أوربّا خضعت له دونَ مقاومة وأقرّتْ له ببسط امبراطوريّته الألمانيّة؟! وعليه فإنَّ دور الإعلامِ الأكبر والأهمّ هو جلدُ العقول لأن تُمسخَ وتهتفَ بغلبةِ الغالبِ وتتبعهُ مأكلًا وملبسًا ومظهرًا وعقيدةً، و"أقوى الإعلام العربي اليومَ كله (حكوميّ) يحاربُ

---

6 يقول المؤرّخ الفرنسي أندري جوليان " إنّ فرنسا منذ 1958 لم تعد تقاتل من أجل منعِ استقلال الجزائر، بل لمنحِ الإستقلال لفئة تحافظ على مصالح فرنسا في الجزائر" قلتُ ومثل ذلك على غيرها من دول العرب، فاستقلالها مكذوب للأسفْ.

7 يرجى قراءة رواية زوّار السّفارات لصالح الشمراني

8 أسطر في النّقل والفكر والعق، عبد العزيز الطريفي

الإسلامَ وينقضهُ ويؤيّدُ العدوّ وينصرهُ، ويتربّصُ بالحقّ ويخذلهُ؛ يتستّرُ الحكام خلفَ الإعلام لحرب الإسلام"[9]؛ وأصلُ كلُّ فسادٍ سلوكيّ وعقديّ وأخلاقيّ وفكريّ ومنهجيّ = القسطُ الأكبر فيه منشؤهُ الإعلام، مسلسلاتٌ فاضحة وأفلامٌ هابطة وأغانٍ ماجنة وشيوخٌ مدلسة ونشرات مضللة وبرامجُ تافهة وتحليلاتٌ كاذبة، وذلك كلّهُ على دوامِ السّاعةِ بدونِ توقفٍ أو نقصان، بل الزيادةُ في كلّ ذلك هي ما نراهُ يومًا بعدَ يومٍ، وقل مثلَ ذلك عن الجرائد والمجلّات وما شابهها، وهذا أغلبهُ تحتَ قدرة الحاكم الذي لو شاءَ أن يمنعَ الإستهزاءَ بالدين والثوابت الذي تُطالعنا به القنوات مرّةً بعدَ مرةٍ لفعل، ولكنّهُ -إن أحسنّا الظنَّ لأبعدِ الحدود- غيرُ مهتمٍ أصلًا بدينِ الله ولا بسبّه أو ازدراءه.

والإستقصاءُ لما أبتدعوا وأجرموا يطولُ، والدّليلُ والدليلانِ يكفيان مريد الحقّ، أمّا المعاندون فقرطاسٌ تحمله الملائكة لا يقنعهم.

ثانيًا العُلماء:

"إذا عُزِلَ العُلماءُ عن قيادةِ العامّة بلا رهبةٍ أو رغبة، قادتِ العامّة نفسها في النّوازل، وهذه مقدّمةُ لفتنة العامّة والدُّهيماء" [10]، و"مكانُ العالِمِ لن يبقى شاغرًا، إذا فقدهُ النّاسُ نصبوا مكانهُ جاهلًا، ففي الحديث (إذا لم يُبْق عالمًا اتخذَ النّاسُ رؤُوسًا جُهَّالًا فَسُئلوا فأفتوا بغيرِ علم)[11]"، وللعلماءِ سُلطةٌ توازي سُلطةَ الحُكام أو تفوقها، والذينَ يقولونَ بأنّ العلماءِ ما بيدهم حيلةٌ = لا يعرفونَ بحقيقةِ تأثير العالم وطولِ يدهِ على السّلطة الموازية له، وعلى العامّة، وخبرُ العزّ بن عبد السّلام المذكور في السير[12] يوضّحُ ما يقدرُ عالم ربّانيّ مصلحٌ واحد أن يفعلهُ، فكيفَ بهيئةٍ مُستقلّة للعلماء؟! وقُل مثلَ ذلكَ عن مدى تأثير ابن تيميّة وكيفَ أنّهُ أثّرَ بطريقة مباشرة في تحريضِ حكامِ عصره على الجهاد ومصاولة التتر الباغين، وبطريقةٍ غير مباشرة في العامّة المعاصرين له، بل وبمن لحقَ من الأمّة جميعها، وجمعيّةُ العلماءِ المسلمين الجزائريين أقامةِ الحجّة على من أتى بعدها، فقد نشطت في أحلك الظّروفِ، وأعادت للشعبِ بفضل الله هويّته وأصحته من غفلته.

إنّ دورَ العلماءِ يكمنُ في تبيين وتعليم الناسِ حقّ الله وحقّ الناس، ولو تدبّرتَ كلّ العبادات التي شرعت لنا لوجدتها تندرجُ تحت هاذين الأصلينِ العظيمين، فالتوحيدُ حقّ لله، والصّلاةُ حقّ لله وللعبدِ بأن يرتاحَ من نكدِ الحياة، والزكاةُ حقّ لله وحقّ للأصنافِ الثمانية المذكورة، والحجُّ حقّ لله، والصومُ حقّ لله وحقّ

[9] أسطرٌ في العقل والفكروالنقل، ابن مرزوق الطّريفيّ

[10] المصدرالسّابق

[11] المصدرالسّابق

[12] لمّا باعَ الأمراءَ الأتراك الذينَ مازالوا عبيدًا وقد قال عن هذه الحادثة ابن السبكي " وهذا لم يُسمع بمثله عن أحد " والقصّةُ يحكيها محمد الزحيلي في كتابه العزبن عبد السلام لمن أرادَ الإستزادة

لنفسِ المؤمن بأن تُزكّى وجسمهِ بأن يرتاحَ وينشط من جديد، والدّعاءُ حقٌّ لله وحقٌّ للعبدِ، والذكرُ وتلاوةُ القرآن حق لله وللمسلم بأن يحييه الله حياةً طيّبة، وكفالةُ الأسرة حق للأسرة، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر حقّ لله وللعباد، والجهادُ حقُّ للناسِ وهو دفعٌ وطلبٌ، فأمّا وجهُ أن جهاد الدفع حقّ للناسِ فهذا ظاهر، وأما أنّ جهاد الطلب هو حقّ للناسِ أيضًا فهذا لأنّ الإسلامَ يحضُّ أصحابهُ لأن يقوموا بالحق بينهم وبينَ خالقهم، وخالقهم أمرهم بالجهاد، وأن يقوموا بهِ بينَ أنفسهم والإنسانُ أخُ الإنسان، لذا فإن المسلمين مُطالبون بأن يَدْعُوا غيرهم من غير المسلمين إلى أن يدخلوا في رحمة الله، ولهذا شُرِعَ جهادُ الطّلب؛ والمسلمون حاكمون ومحكومون، والحاكم الفاسقُ لا يقلقه كثيرًا أن يبيّنَ العالمُ للناس حقوقهم فيما بينهم، بل ما يُضجرهُ أن يبيّن لهم حقوقهم على حاكمهم، وأن يبيّنَ لهم بعضَ حقوقَ الله عليهم الّتي فيها تضييق على فسق الحاكم وظلمهِ وجوره؛ ونشرِ الوعِي بين الناسِ من أبرز مهمات العلماء، والوعيُ ضدّ الغفلة والجهل، والإنسان يفسدُ ويُخطئُ لأسبابٍ ثلاثٍ : الجهلُ والغفلة والهوى، والنسيانُ يشبهُ الغفلةُ، وهو من الإصرِ الذي رفعهُ الله عن المسلمين، والسلطان الفاسد من مصلحتهِ أن تجهلَ الناسُ عن حقوقها فيستفردَ بها ويمنعهموها، والعالم لا يرضى بذلك، والسلطان يحبّ أن يوافقه الناسِ عن كلّ ما يصدر منه سواءٌ حقًّا أم باطلًا، والعالم لا يرضى ذلك، ولذا فإنَّ الحاكم يعمدُ إلى أن يُكثّر سوادَ مجلسه بعلماء السّلطان، الذينَ يُمرّرُّ بفتاويهم الضالة ضلاله، ويُحسّنُ بمجالستهم صورتهُ لدى العامّة، والآثار الواردة عن النبي والصحابة والتابعين في ذمّ مجالسة السّلطان وكثرة مخالطته مشهورة منثورة، لأنَّ صلاحَ هذين السّلطتين مُرتبطٌ بأنْ تصلحَ الثانية -أي سلطة العلماء- وتستقلَّ، وهذا هو النّوعُ الأوّل من العلماءِ الفاسدين[13] الذينَ يفسدُ بفسادهم دينُ الملكِ وإذا فسدُ دينُ الملك أفسدَ عن الناسِ دينها ودُنياها، أمّا النوعُ الثاني فهم العلماءُ المُضلّونَ الضّالون الذين لا يرضيهم أن يكون شرّهمُ متعديًّا، بل أن يساهموا هم مباشرةً بذلك، فتراهم لا همَّ لهم إلّا أنفسهم ومنهجهم، يرونَ كلّ من خالفهم - بغير حقٍّ - مُخطئًا ولو أنّهُ كانَ مثلهم مُجتهِدًا، يبيعونَ دينهم بدنيا الملوك، قلّما ينهونَ عن منكر، وكثيرًا ما يأمرونَ به إمَّا تصريحًا أو تلميحًا أو سُكوتًا، والسّكوتُ عن المنكرِ أسلمُ، لكنّهُ مقادُ الهلكة يومَ القيامة وقد جاءَ ذكرُ التحذيرِ من كتمانِ العلم النّافعِ في حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في أنّ من كتم علمًا ينتفع الناس به ألجمه الله لجامًا من نار يوم القيامة أو كما قال رسول الله، وسكوتُ العلماء عن منكرات السّلاطين والحكام تفتنُ النّاس والعامّة أيما فتنة، أي نَعَم يُفتنُ العالِم بأن يُضايق ويلاحقَ ويُسجنَ وربما يُقتل، لكنّ ضلال الناسِ أشدُّ، والفتنة حاصلة إمّا بأن يفتنَ الخاصّة فيثبُتَ العامّة ويهتدون، أو يُفتنونَ بأنْ يروا العلماءَ مفتونين، وسلامةُ دين النّاسِ ودنياهم أولى من سلامةِ بعضِ العلماء وسلامةِ دُنياهم، وهذا مُقرّرٌ لدى أهل الألبابِ والنُّهى.

[13] كان أبو حسان المنذر–أحد الفقهاء المعاصرين للحجاج يقول "من خالفَ الحجّاجَ فقد خالفَ الإسلام"، قلتُ ما أكثَرَ المناذرة اليومْ.

شبهاتٌ وردود:

شبهةُ أنّ الحكومة بنتُ الشعب:

عندما تسمعُ قولًا فيهِ أنَّ الذين هم في رأسِ الهرمِ من الفاسدين ماهم إلّا أبناءُ الشعب الفاسدون = يكادُ ينفجر رأسك من هول غباءِ هذا الإستنتاج! فكيفَ يزعمونَ هذا وهم يعلمون أنّهُ ما من انتخاباتٍ يختارُ فيها الشعب ممثليه إلّا وهي مزوّرة؟ فإن سلمت من التزوير تمَّ نقضُها بالقوة، وفي التاريخ نماذجٌ كثيرةٌ، وما خبرُ د.مرسيّ عنّا ببعيد، إنَّ أيادي الناخبين تُزاحمها يدُ الحكومةِ فتسبقها للصندوقِ وتراقبها وتعيدُ ترتيبَ أوراقها بعد ذلك، والشعبُ أصناف صالحٌ وطالح والذينَ يُسمحُ له بالوصول إلى المفاصل هم من الجنسِ الطالح، ولذا فإنَّ دعوى أنّ من يحكمنا هم أبنائنا دعوى فارغة خاطئة، والصحيح هو أنّ الصالحين يُمنعونَ والطالحينَ يُقرّبونْ.

شبهةُ أنّ الناسَ لم تعد تسمعُ للعلماءِ أقوالهم ولم يعودوا يسمعونَ لهم فتاواهم وإرشاداتهم:

الحكمُ على الأمورِ إنما يكونُ بالحكم على أصولها لا على فروعها، والسببُ يسبقُ النتيجة، لذا فإنَّ الحالةَ التي وصلَ إليها الناس والشعب من إعراضِ كثيرٍ منهم عن السماعِ من العلماءِ سببه أوّلًا الحكامُ وضُلّالُ العلماء، فالحكومات التي تستعملُ العلماءَ الضالين في تمرير ومباركةِ شذوذها ومنكراتها تقرر في عقول الناسِ أنَّ الدّينَ يأمرُ بهذا الضلال، ومن هنا نشأت بدايات إنتكاسة الناس في إعراضهم عن ميراث النبي الذي ينثرهُ العلماء، وعلماء اليوم كثير منهم ركنَ إلى حبِّ السلامةِ والراحة أو إلى تتبع زلات المجتهدين وإغضاء الطرف عن زلات الحاكمين، لأنَّ الحاكم ينتصر لنفسه وربما أنزل بالعالم عقوبة، أما المجتهد فغالبًا لا حول له ولا قوة، ومنهُ فإنّ النّاسَ "مَلَّتْ وسئِمت" من منظرِ التقاطِ العلماء لفتات الملوك الساقط من على موائدهم.

خاتمة:

إذا فهمتَ من مقالي هذا أنّي أؤصّلُ لتبرير إنحرافِ الناسِ وفسادهم بدعوى أنهم مغلوبون على أمرهم فإنكَ مُخطئ ولم تفهم بعدُ هدفَ المقالة والرّسالة، فإنّي أعلمُ يقينًا أنّ كثيرين سيفهمونَ هذا ويقولون: انظر إليه وهو يشجع الناسَ على الفسادِ بشيطنته للحكام والعلماء؛ ولأنَّ من وضعَ نفسهُ في موضع الشبه فَاتُّهِمَ فلا يلومنّ إلا نفسه كما يقول الإمام عليّ رضي الله عنه فإنّي مُلزمٌ بأن أوضّح:

لم أكتب ما كتبتُ لأنني مُحرّضٌ أو مفتّن، بل بالعكسِ مساهمًا في فضحِ الفتنة كتبت ما كتبت؛ تبيين الغامض والمجهول وردُّ المقلوب من التصورات والإعتقادات إلى صورته الحقيقة من مهمات العلماءِ كما أسلفنا الذكر، ومن واجبِهم أن يُظهروا للناسِ أنَّ الحكامَ خوارجٌ خرجوا عن حياضِ الأمّة وعادوْها وتسببوا ويتسببونَ في طمسِ هويتها ومعالمها، وهذا من العهدِ الذي أخذه الله عليهم.

والمسؤوليّاتُ تتفاضلُ وتتمايز، فمسؤوليّةُ ربّ الأسرة الذي يجلبُ خمرًا وتمرًا إلى أهله ثمَّ يتشاغلُ عليهم ولا ينهاهم ولا يأمرهم ثمَّ لا تنكر زوجته عليه إلا على استحياءٍ أكبر بكثير من مسؤوليّة الطفلِ الذي يتطفّلُ على الثلاجةِ ويختلسَ خمرًا، والزوجُ هنا الحاكم والزوجة العلماء والطفل الشّعب؛ بيدَ أنّ الشعوبَ أيضًا لا تسلمُ أبدًا من تسبيب الفساد واستمراره، فالعاميُّ الذي لا يصلّي مُفسد والذي يسبّ الله أفسدُ منه، والذي يزني ويفجرُ كذلك، وأبدأ بنفسي فإنّي كثيرًا ما أعلم ولا أعمل، وأدركُ ولا أستدرك، وأتنبّهُ ولا آبهُ، رفعَ الله عني وعنكم الغفلةَ والزلّة والإصرار.

أمرٌ آخر: هذه الرسالة لم تجعل لتقنيطِ الناسِ وتأييسهم -معاذ الله- بل لأن تُبرِزَ مواطن الخلل لتصلح، ومن جَهِلَ داءه جَهِلَ دَوَاءهُ، وأما كيفَ يُرفع هذا الفسادُ وكيفَ يحارب، فدونكم العلماء فهم أدرى، والله أعلى وأعلم، وإن أصبتُ فمن الله وحده لا إله إلّا هو، له الحمد على توفيقه وتأييده، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، (**والله متمٌّ نورهُ ولوكرهَ الكافرون**).

وكتبهُ: أبو عكرمة الجزائريّ عفا الله عنه وعن والديهِ والمومنين.